

أبعاد العالمية في الإسلام

أبعاد العالمية في الإسلام

السيد مجيب جواد الرفيعي

قم - إيران

بسم الله الرحمن الرحيم

مدلول الاخوة الإسلامية

تقوم الاخوة الإسلامية على مجموعة ركائز:

الأولى: أنه ليس المراد من الاخوة مجرد الانتماء إلى أصل واحد برابطة دموية، بل المقصود هو الرابطة النفسية التي تورث الشعور العميق الديني بالاعتبار الإنساني للآخرين واعتبار وجودهم على كافة المستويات من إنسانية وحقوقية ودينية. وهي بذلك رابطة إنسانية ومصدر الالتزام والتكامل ومنبع للأخلاق والحقوق: قال تعالى: ﴿إِن زَمَّ مَلَائِكُهُمْ مِنْ ذُنُوبٍ إِخْوَةٌ﴾ (1).

الثانية: وهكذا فقد حلتّ الاخوة الدينية محل العنصرية والجنسية اللّتين كانتا في العصر الجاهلي ولقد جعلت هذه الأخوة العرب أمة جديدة وامتدت بآفاق

1 - سورة الحجرات، الآية: 10.

-(250)-

الإسلام إلى أوسع مدى: صارت آفاقه العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها.

وأوجدت هذه الاخوة أيضاً عند الفرد المسلم الإحساس بالجماعة الإسلامية ومصالحتها وخيرها وعند الجماعة الإحساس بالفرد وخيره ومصلحه، ونتج عن هذا الإحساس المتبادل تضامن روحي وتضامن مادي هدفهما تمتين هذه الاخوة وبقاؤها.

ورسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الاخوة ما يقويها ويبقيها ويغذيها «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وتقوم أصول هذه الاخوة على التقوى «الحقيقية القلبية» التي تعني إنسان القضية الذي يعي ذاته وعقيدته ومجتمعه.

فالأخوة الإسلامية ليست انفعالا مبهما أو رباطة عصبية أو دعاية سياسية أو ديمagogية إقليمية أو خيال شاعر أو حلم فيلسوف ولكنها روح الحياة الإسلامية في شمولها الإنساني ورسالتها الإصلاحية وصياغتها السوية للمجتمع البشري مبرأة من رياح التعصب وظلم العنصرية وجفافها.

وان من أهم مظاهر الاخوة الإسلامية النص على المساواة الإنسانية أي وحدة المجتمع الإنساني في الأصل والمنشأ والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والتكليف والمسؤولية بشروطها وتفصيلها الحقوقية الواسعة والمساواة الاجتماعية من يحث الاعتبار الإنساني بغض النظر عن المهن والطبقات والأشكال والألوان:

1 - فلقد ساوى الإسلام بني الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بما لها من حقوق وما عليها من واجبات مساواة إنسانية عامة بين جميع الخلق ورفع لواء العدالة وسار بها في طريق الواقع العملي والتطبيق

—(251)—

الفعلي.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَاَوْوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (1).

وقال عزَّ اسمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (2).

عدلاً مطلقاً مبرأ من التأثير بالهوى أو العوامل الشخصية كالحب والبغض والقراصة والغنى والفقر والقلة والكثرة، بل مبرأ من العصبية الدينية أيضاً.

الثالثة: وقد شرع الإسلام العدالة في القضاء والحكم وألزم القاضي أن يتحرى الصدق والعدل وإن يسوي بين الخصمين من كل وجه وإن لا يخضع للمؤثرات الشخصية وإن لا يقبل هدية وإن لا يقضي وهو غضبان أو في حالة نفسية تحول بينه وبين ضم القضية ومعرفة حكمها: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْدِلُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (3).

الرابعة: وأخيراً نص الدين الإسلامي على المساواة والعدالة الاجتماعية فكرَّم العمل والمهنة والسعي والكسب وطلب العلم والفضائل الإنسانية وفتح أمامه المستقبل والحاضر السعيد على مصراعيه: ﴿فَلَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّ هَذَا الْعِزَّةُ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (4).

1 - سورة النساء : الآية 135.

2 - سورة النحل: الآية 90.

3 - سورة النساء : الآية 58.

3 - سورة قريش: الآية 3 و 4.

-(252)-

الإيجابية في تعاليم الإسلام

لكي نعرف هدف الرسالة الإسلامية في حياة الإنسان علينا ان نفهم معنى الإيجابية في تعاليم الإسلام: فالإنسان الذي صنعه الإسلام للحياة هو مثالاً للتقدم ونموذجاً لفدائية الإرادة الإنسانية وهو ذلك الفرد الإيجابي الذي يربط وجوده بمجتمعه ولا تعزله عنه أنانية أو ذاتية خاصة تحجب إمكانياته أو تبعده عن أداء ما يمكن ان يوكل إليه القيام به في خدمة مجتمع يهدف الإسلام دائماً إلى رتقيته وتقديمه استجابة لسنة التطور وإيماناً بأن طريق الحياة منطلق إلى كل جديد من أجل خير الإنسانية ورخائها وإشاعة السلام واستقراره (1).

وإيجابية إنسان الإسلام حين لا يعزل نفسه عن واقع الحياة والانخراط فيها لا تعرف الكينونة المستقلة ولا الانطلاق الفردي الطائش وأيضاً ولا الموقف الجامد الذي يعبر عن صلف وغباء، أو الموقف الهزيل الذي يفصح عن نكوص الفرد وتهريبه من تحمل عبء دور يوكل إليه تجاه ما يجري حوله وإنّما إنسان الإسلام فرد في مجموع كبير هو الحياة كلها. ولا إيمان لإنسان الإسلام بما يقدم من جهد أو طاقة إلا ان يكون في خير هذا المجموع وهذا الأساس السلوكي في عقيدة المسلم وتربية الإسلام لأبنائه مستمد أصلاً من عقيدته الدينية بكل مكوناتها وشمولها حين عرف المسلم ان كل الأفعال إنّما تتجه إلى اله واحد يحاسب على الخير والشر وحين آمن المسلم ان الإسلام يربط أفرادهم جميعاً في وحدة عالمية بعقيدة واحدة تتجه ومكوناتها إلى فاعلها الأول ومبدعها الخلاق

-(253)-

وحده: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنْذِرَُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (1).

وإيجابية المسلم حين وكل إليه أمر العمل والانطلاق به ما وسعته طاقته يختلف عن غيره من الأفراد فهو بتصوره الإسلامي يجد في نتاج عمله ثمرتين مباشر إحداهما بحسه وجوارحه حين يكون في واقع مادي وبروحه وقلبه حين يناط به معنى من الأمور التعبدية، وثمره مختزنة في أعماق نفسه يلقاها عند ربه ليحيا بها الحياة الثانية التي يؤمن بها وتقوم عليها معاني جمّة في عقيدته: وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (2).

يؤكد الإسلام للمسلمين موقف الإيجابية المبدعة والخلافة حين يتحرر صاحبها من التقليد ويعمل عامل الثقة والإيمان عمله بما يكفل ان يكون إنسان الإسلام هو تلك الإرادة التي تنطلق تعبر عما هي معدة له أصلاً وهو ربط علاقة الإنسان بربه سَنُذَرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْوُفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَزْوَجُهُمْ الْحَقُّ أُولَئِكَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَزْوَاجُهُمْ عِلَاقَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (3).

والعمل الصالح كمظهر إيجابي في حياة المسلم هو مبتغاه الوحيد الذي لا يعرف له مبتغى سواه وهو كل ما يرجوه فيما يقدم من جهد أو تضحية ومن أثر ذلك أن المسلم مهما عمل فيه التواكل وهو ليس من أساسيات الإسلام فانه ما ان ينخرط في سلك الجماعة فان أساسا عميقا من مكوناته يدفعه دفعا إلى إنكار الذات والتفاني في أداء ما يعمل. ذلك ان أعماق المسلم مستعدة دائما لأن تعيش

كل تقدم بل وتقوده وتبعث فيه كل عوامل الخلق والإبداع من أجل غد يحفظ للإنسانية كل مظاهر التكريم الإنساني والانطلاق نحو خير الإنسان وسعادته.

العالمية في الإسلام

قبل ان نلحظ مغزى ومصاديق العالمية في رسالة الإسلام نتبيّن ملامح هذه العالمية: لقد سلخ الإسلام حتى اليوم أربعة عشر قرناً من التاريخ، وليس ثمة أحد يستطيع ان ينكر ان التعاليم الإسلامية قد نجحت في تأسيس مجتمع إسلامي بحث.

وإذا كان الإسلام قد أثبت جدارته وصلاحته كعقيدة دينية تزايد معتنقوها – على نحو لم يسبق له نظير – حتى اندرج في عقدها معظم سكان العالم في ذلك الوقت، فانه نجح أيضاً كنظام اجتماعي له قوانينه الصالحة ومبادئه الأخلاقية المثالية وبفضل هذه القوانين والمبادئ تحقق للإسلام هذا النجاح.

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام قد قامت أساساً على مبدأ لا إكراه في الدين فإنه من الأسف ان ينسب انتشار الإسلام إلى عامل ما غير ذي صلة بعامل الإقناع.

وإنّما كانت عملية الإقناع نفسها مستحيلة إذا لم تتوفر للداعية الإسلامي كافة الظروف والضمانات التي تكفل له القيام بمهمته في حرية وبلا قيد. وفي الحقيقة ان الإسلام ليس فقط كغيره مما سبقه من الأديان، ولكنه شيء أوسع واشمل.

ولأول مرة أيضاً أعطى الإنسان صورة تامة ونهائية عن الطريقة المثلى التي ينبغي ان يكون عليها سلوكه على الأرض، فجاءت رسالة الله في الإسلام تامة وشاملة فهي من ناحية مفتوحة على عظمة الله التي لاتحد وهي من ناحية

أخرى ذات صلة باحتياجات وضرورات الإنسانية المتشعبة وكان الإسلام وما زال ديناً متميزاً عما سواه من الأديان. ومن الخطر كل الخطر أن ننظر إلى ما سنّه الإسلام من قوانين تنظم حياة البشر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية دون أن نراعي الناحية الأخلاقية فيه، وهنا أيضاً لابد وأن نضع في اعتبارنا حقيقة وجود الله وما أعده لنا من ثواب وعقاب لا على كل ما نعمله فحسب بل أيضاً على ما توسوس لنا به أنفسنا وما تهجس به ضمائرنا. أذن فالإسلام في حقيقته ليس إلا إيماناً خاصاً حياً متجدداً مع كل لحظة من لحظات الزمن في قلب كل فرد مسلم.

ونعود فنقول أربعة عشر قرناً من الزمان كانت فيها التعاليم الإسلامية هي الدافع الأقوى في ديناميكية التطور الحضاري الإنساني ما دامت هذه التعاليم محل اعتبار من الإنسان.

كما ظلت العقيدة الإسلامية من حيث التعريف بذات الله وصفات العظمة والجلال والكمال فيه تريح روح الإنسان وتملاً شعوره بالإيمان الواثق المطمئن.

وإذا كان الإنسان قد ظل طوال تاريخه في هذا الوجود قلقاً شقيماً يبحث عن راحة الضمير في الإيمان، وعن أمان النفس في العدل والحرية، فإن الإسلام قد أتاح للإنسان حلاً لمشاكله وأتاح له على نطاق واسع كل ما كان ينشده ويبحث عنه حيث أعطاه ثلاثة أمور جوهرية: أولها: تفسير روحي لحقيقة العالم،

وثانياً: تحرير روحي لذات الفرد. وثالثها: نظام من المبادئ العالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على صعيد روحي ومادي معاً.

وأيضاً فقد كان نجاح الإسلام شاملاً ومثيراً معاً، وحيث لم يكن نجاحاً قومياً ولا عنصرياً وإنّما كان نجاح الإسلام الخلاق المسؤول. والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية لم يبنيا على الجهود العربية وحدها — وربما كان المجهود

العربي في عملية البناء هذه ضئيلاً لا يذكر — وإنّما ساهمت فيها بالقسط الأوفر عناصر هلمينية وعناصر من ثقافات الشرق الأدنى القديم السامية وأخرى من إيران الساسانية وأخرى من الهند وكذلك ساهمت فيه

عناصر من مصر وبدو الصحراء الكبرى والبربر والأندلس، وقد صهر كل ذلك في بوتقة واحدة وخرج سبيكة إسلامية جديدة متميزة عن أصولها القديمة تميزاً كلياً وكان الإسلام هو الوقود الذي أتم هذه العملية كما كان الضمان الوحيد لصيانة هذا الشيء الجديد المدهش والمحافظة عليه، كما أعطى الشكل الإسلامي لكل ناحية من نواحي الحياة مهما كان الشيء تنطوي عليه. وقد كان هذا الطابع الإسلامي هو الذي أعطى المجتمع الجديد صلابته وحيويته.

وكذلك فإن التجربة الإسلامية قد برهنت على أن هذا الدين لم يلب الحاجة البشرية فحسب، إنه فتح أمام الإنسان أيضاً الآفاق التي لا حدود لها، ورسم له الطريق واضحاً لكي يستغل كل ما وهبه الله من عقل وحواس وإمكانات في اقتحام هذه الآفاق. والقرآن الكريم كثيراً ما يحث المسلمين لأن ينتفعوا بما أنعم الله به عليهم وأباح لهم الطيبات وأمرهم بالسعي وعدم القعود ورسم خطط هذا السعي حركة دائمة إلى الأمام تجدد نحو الرقي وتقدم في تيار التطور فلا وقوف ولا انتكاس وهذا المسلك السليم الذي وضحه القرآن لم يكن يعتبر إنَّ بذل الجهود في سبيل التبشير بالدعوة الإسلامية واكتساب الأعضاء الجدد للمجتمع الإسلامي جهاد في سبيل الله فحسب بل إنه ضاعف لذلك الثواب، فالدين الإسلامي دين البشرية جمعاء ومجتمعه أتاح الانتماء إليه لكل إنسان ودعوته عملية ديناميكية دائمة الحركة من طبيعتها إلا تتوقف في أية ناحية بل تسير في كل اتجاه حتى تغطي سطح الكرة الأرضية بمجتمع إسلامي بحث، وهذه العقيدة

—(257)—

ليست بالبعيدة أو عسيرة التحقيق لو أن كل فرد أو جماعة من المسلمين تشبّعوا بالمبادئ الإسلامية وعملوا بمقتضى تعاليم هذا الدين وبذلوا الجهود الكافية للدعوة له واستدعوا لهذه الدعوة ووفروا لنجاحها الامكانيات.

إن الإسلام جاء لضرورة عالمية ملحة وقد حقق هذه الضرورة، فقد تكفل بهداية الإنسانية جمعاء، وأرضى ضمير الإنسان وروحه، ولبى مطلبه في العقيدة والإيمان، ورسم الطريق لبناء مجتمع عالمي يقوم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وعالج ما كانت قد تردت فيه الإنسانية قبله من أخطاء وقضى على ما كانت تتخبط فيه من شرور.

دلالة معنى العالمية

وبعد إن اتضحت لنا أبعاد العالمية نقول: الإسلام منذ تفجرت ينابيع دعوته في الجزيرة العربية وهو

دين التوحيد والتنزيه، غير ان في الإسلام خصائص موضوعية وأصولاً أخرى تضاف إلى عقيدة التوحيد والتنزيه. الإسلام في عالميته الإنسانية أو إنسانيته العالمية كان شيئاً معجزاً لم تعرفه الأديان ولا المذاهب - من قبل -.

كان أول ما في الإسلام حين دعا إلى التوحيد أن دعوة التوحيد في الإسلام لم تكن مسائل غيبية ومثاهات ميتافيزيقية وإنّما قامت دعوة التوحيد على توحيد الإنسانية كلها في حقوق واحدة، وتوحيدها في هداية واحدة وتوحيدها في إيمان بالله واحد لا اله إلا هو ولا رب لكل البشر سواه يتساوى الناس جميعاً بين يديه ولا يتميزون إلا بمقدار ما يقدمون للإنسانية من خير وسلام، ولا يتحقق

-(258)-

التمايز بغير الفضل والصلاح والعدل والمساواة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (1).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (2). ومن خصائص هذا الدين ان مجتمعه ان صدق مع جوهر ما يؤمن به يصبح هذا المجتمع متفتحا بشكل يتحرك فيه على أساس من معنى العالمية، حتى ولم لم تكن قد تحقق له بعد تلك العالمية بالفعل لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها لا فرق لديه بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين لغة ولغة ولا حتى بين دين ودين.

مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود.

فالإسلام يواجه مجتمعه في أول لقاء ينفي كل تلك النعرات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (3).

فباستطاعة كل إنسان ان يعيش في حمى الإسلام، وفي ضمن مجتمعه ن دون ان يحس بغربة، بل انه - على العكس من ذلك - ليحس أسرة واحدة تربط بينه وبني ذلك المجتمع، وهذا الموقف من الإسلام يحقق السلام العالمي للإنسان لأنه يقضي على أهم أسباب الحروب، ويقف في وجه التكاليف الاستعماري الذي يقوم على الشعور القومي أو العنصري.

ثم والإسلام في حركته لا يحبز فكرة الوطنية الإقليمية في مجتمعه، ولكنه يبقى على المعنى الطيب من تلك الفكرة، وهو معنى التجمع والتآخي والتعاون والنظام والهدف الذي تلتقي من أجله الجماعة من الناس.

1 – سورة الحجرات: الآية 13.

2 – سورة الأنبياء: الآية 107.

3 – سورة المائدة: الآية 108.

–(259)–

فالإسلام بدعوته تلك يحرر فكرة الوطنية من مادية الأرض ويجعلها فكرة شعورية – لا رقعة أرضية فحسب – يجتمع في ظلها الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وموالدهم، فإذا هم جميعاً أبناء وطن واحد.

ومنطلق تلك الفكرة في الإسلام في قوله تعالى ﴿إِنَّ زَمَّامَ الْوُجُوهِ لَرُحْمَةٌ﴾، (1) وبذلك يقضي على نزعة الاستغلال العنصري فكل ما ينشأ عنه هو شعور المسلم بأن كل أرض يظلها الإسلام هي وطنه وبأن كل مسلم يعيش على الأرض هو مواطن له.

وبناء على ذلك أيضاً فإنه لا مجال لدى المجتمع الإسلامي لظهور تلك العصبية لأن لا يعتمد في ترابطه على وشيجة الجنس، أو عنصر الدم فالجنس الإنساني واحد، والدم البشري لا يختلف الاختلاف الذي يؤثر في تكوين المجتمع أو في التلاقي والتعاون. والإسلام في ذلك يحرص على أن يشد المجتمع بسبب قوتي متين لا يخشى عليه التمزق السريع إذ ليس أسرع من تمزق رابطة تقوم على الجنس والدم.

أما العقيدة فهي حيل لا توهيه الأحداث ومهما تكتلت قوى العدوان من الخارج ففي داخل هذا المجتمع المؤمن ما يتحمل عنه الصربات ويدفعها عنه حتى يضمن له السلامة.

ولأنه – الإسلام – لا يمنع من الظلم إنسانه – فحسب – بل من معارك لأنه لم تكن هناك معركة واحدة يرجع سببها إلى عصبية أو إكراه أو عدوان، بل كانت لك معارك المسلمين دفعا لظلم أو ردا لعدوان ليس غير.

–(260)–

ومن ثم تتأكد العالمية في مجتمع الإسلام، فهو لا يقصر القتال على تحقيق مصالح خاصة لأفراده موزعين أو مجتمعين ولكنه يجعل نصره المظلوم وتخليصه من ظلم طالمه سببا يدعو للقتال، مع حبه للمسلم ورغبته فيه – ايا كان هذا المظلوم، وأيا كان هذا الظالم –، وان عالمية الإسلام – تلك القيمة التي تنبثق عن عقيدته – توجب على مجتمع الإسلام إلاّ يقطع الصلة بينه وبين الذين لا يدينون بالإسلام ماداموا لا يحاربونه ولا يمنعون دعوته ان تبلغ الناس، ولا يفسدون في الأرض ولا يعتدون على ضعيف، يدفعه عن الناس جميعاً، ويمنع الناس جميعاً ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهِمْ مِّنْهُمْ أَلُمُّهُمْ وَمِنُورُ الْإِيمَانِ وَمِنُورُ الْإِيمَانِ﴾ (1).

كل ما يريده – الإسلام – ان تترك له حرية الدعوة بين أهل الأرض جميعاً حتى يصلهم بالخير المطلق الذي جاء به وألاًّ يقهر إتباعه على ترك عقيدتهم وان تتاح له القوة اللازمة لحمايتهم من العدوان عليهم واللازمة لتنفيذ شريعته بينهم.

لم يكن القتال وسيلة من وسائل نشر الإسلام، لأن ذلك يحقق العصبية بمعناها الشرير الحقير، فليس الأمر كما يحلو لدعاة السوء أن يشيعوا عن الإسلام مستغلين ما صادف والصلة بين مجتمع الإسلام وبين هؤلاء يحددها وضعهم أنفسهم، فإن كانوا خارجين عن سلطان الإسلام – ممن لهم دين آخر أو ممن ليس لهم دين – فمجتمع الإسلام لا يحاربهم ولا يقاتعهم ولا يعاديهم ماداموا لا يحاربونه ولا يقاتعونه ولا يعادونه ولا يعتدون على مستضعف من غير المسلمين.

–(261)–

ونظامه - على أساس تلك القيمة من قيمه - لا يقف عند تلك السلبية - يعادي من يعاديه ويسالم من سالمه - بل انه يسمح بالتعاون الإيجابي معهم عن طريق المعاهدات التي يحترمها الإسلام كل الاحترام

﴿لَا يَنْذِرُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ - إِنَّنَّمَا يَنْذِرُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَؤُلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

والإسلام إذ يعلن عن ذلك المبدأ لا يغفل ما يمكن ان ينال المسلمين من أعدائهم فيحدد موقفهم من ذلك في صراحة ووضوح لاموادية فيه ولاغش.

والعهود في الإسلام تلتزم العالمية وتسعى لتحقيقها، فهي ليست عوداً «ميكافيلية» تقوم على العدر وتعتمد على الخديعة، بغية ان تكون أمة هي أربى من أمة ولكنها عهود تقوم على الالتزام والوفاء وتعتمد على الصراحة.

الإسلام مبادئ عالمية

مبادي العالمية في الإسلام جلية، فمنذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الإسلام أصر على انه لا يأتي بشيء من عنده وإنما يبلغ رسالة الله إلى أهل الأرض، وأيضاً فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مجرد مبعوث يردد رسالة السماء لمحض التبليغ وإنما كان بإرادة الله معصوما وبأمره مردا وهاديا، فكان يعيش حياته ويعمل طبق هداية الله ومن ثم كانت أعماله كلها وأقواله كلها إيضاحاً لآيات الله وتفسيرا لمجمل القرآن وبياناً لكيفية تطبيق نصوصه على أعمال الناس وسائر شؤون حياتهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

—(262)—

الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذَٰلِكَ ۚ﴾ (1). ﴿وَمِمَّا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمِمَّا زَهَّاهَا كُمْ عَنهُ فَإِن تَقُوتُوا اللَّهَ إِنَّا لَنَشُدَّيْكُمُ الْعُقَابَ﴾ (2).

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن
كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (3).

فالإسلام وهو نهاية الأديان وخاتمةها ليس وقفاً على عصر وليس خاصاً بجيل، وإنّما هو دين كل عصر وكل كل جيل ومن شأن هذا الدين أن يكون ذا طبيعة تقديمية تتسع لكل تطور وكل تقدم وتناسب كل تجدد وكل تبدل في الحياة الإنسانية عبر العصور والأجيال، فإذا وقفت القواعد والأصول الكلية التي وضعتها وأبانها القرآن حائلاً دون تحرك الإنسانية نحو التدهور أو التخلف كان هذا ضماناً أكيداً لكي يكون سير الإنسانية دائماً إلى الرقي وإلى الأمام.

ومما امتازت به أيضاً شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم أنها جاءت موافقة وامتشية مع الطبيعة البشرية وقصورها فتدرجت مع مقتضيات أحوال الناس وظروف البشر.

وفي قواعد الدين كلها أتجه الإسلام منذ البداية اتجاهها عالمياً فلم تقتصر الدعوة على قوم دون قوم أو جنس من البشر دون جنس آخر وإنّما هي دعوة الله للإنسانية كلها ولسائر أجناس البشر لا فرق في ذلك بين أبيضهم أو أسودهم بين غنيهم أو فقيرهم بين رئيسهم ومرؤسهم، وإذا كان هناك تفاضل بين الناس والإنسان فإنما ذلك يعود فقط إلى قوة الإيمان والتمسك بالشريعة لا إلى سبب

1 - سورة الأحزاب: الآية 21.

2 - سورة الحشر: الآية 7.

3 - سورة آل عمران: الآية 164.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيٍّ كُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۚ وَمَن يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (1).

الإسلام عقيدة عالمية

العقيدة في الإسلام عالمية تشمل الإنسانية كلها ، ورسالة تدعو – أول ما تدعو – إلى التعريف بالـ وتنبيه عنه باسمه ، وتقيم الدليل بيناً مقنعاً على وجوده. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۚ اللَّهُ صَمَدٌ ۚ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (2).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا ۚ لَّكُم مِّنْهُ فَلَاحٌ يُعْلَوْنَ لِلَّهِ أَندَادًا ۚ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (3) ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَمْثَلًا فَطِيرًا ۚ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنَّ رَيْبَ الْمُمِرَّةِ أَنَّهُ أَكُونُ أَوْ لَمْ مِّنْ أَسْلَامٍ وَلَا تَكُونَنَّ ۚ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (4).

وعلى الجملة فالـ كما يتجلى من خلال الإسلام ذات أزلية سرمدية متصفة بكل كمال ومنزّهة عن كل نقص هو صانع العالم وخالق الكون، لم يلد ولم يولد،

1 – سورة النساء: الآية: 123 – 124.

2 – سورة الإخلاص: الآية 1 – 4.

3 – سورة البقرة: الآية 21 – 22.

4 – سورة الأنعام: الآية 14.

واحد لا شريك له ولا مثيل.

والإسلام حين يعترف بما سبقه من الرسائل فانه يطلب الإيمان بأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وبأن رسالته تضمنت خلاصة الرسائل السابقة وزادت عليها ما به كمال الإنسانية التي أتاح الله لها هذه المرة — وبشكل نهائي — الطريق الواسع نحو التطور الصحيح ونحو الرقي المادي والروحي. «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (1). «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ وَعْدِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (2).

ولهذا كانت هذه الرسالة الإلهية النهائية رسالة عامة موجهة إلى جميع الناس مهما اختلفت سنتهم والوانهم وأجناسهم في كل زمان وفي كل مكان ابتداءً من وقت البعثة النبوية حتى يوم القيامة: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (3).

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (4).

ولقد أعتني الإسلام — في محيط الإنسانية — بوحدها وفي الفرد باعتبار ان صلاح الفرد أساس ضروري لتكوين المجتمع الصالح.

فعمل على بناء شخصيته وقتويعها، ورسم لها طريق التصرف في حرية وعزة وكرامة، لا، هذا الفرد كوحدة يمثل نواة لكل مجتمع إنساني ابتداءً من الأسرة إلى الأمة إلى المجتمع الإنساني بأسره.

1 - سورة الأحزاب: الآية 40.

2 - سورة المائدة: الآية 3.

3 - سورة الأعراف: الآية 158.

4 - سورة سبأ: الآية 28 - الإسلام ضرورة عالمية، زاهر عزب الزغبى، الهيئة المصرية العامة، 1971 م، ص 134 و 145.

-(265)-

وتقويم شخصية الفرد وتربيتها على العزة والكرامة والحرية أمر جوهري للنهوض بالبشرية كلها، والقرآن مليء بالآيات التي تنبيه عن تكريم الإنسان وإعزازه له. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُومَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خُلِقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (1).

والإسلام قدر عنايته بالفرد الإنساني اعتنى أيضاً بالجماعة الإنسانية فارتباط الإنسان بجماعته يهيء للحيوانات الفردية وضعاً اجتماعياً هو نوع من الاخوة يشعر معها الفرد بتزايد في القوة والأمن، ويخلق عنده مجالاً للوعي الجماعي المشترك، وهذه الاخوة وهذا الوعي ينتج عنهما نوع من الترابط الإنساني يتجاوز حدود الوطن المحدد أو الجنس المحدود.

ومن هنا كانت الأمة أو الجماعة التي يريدتها الإسلام ذات طابع متحرك ومن شأن حركتها ان تكون مثابرة لا تكل نحو خلق مجتمع عالمي أو حركة نامية لا يقف لها نمو قبل ان تشمل العالم جميعه فينتظم فيها سكانه بأجمعهم ينظم شؤون حياتهم قانون دائم الصلاحية، قانون لا يعرف حدودا في الزمان أو المكان، قانون دولي عام.

لابد للمجتمعات البشرية من ضوابط تنظم العلاقات التي تربط على الأقل بين أفرادها ، ومهما كانت هذه المجتمعات فلا بد من هذه الضوابط وإلا فسدت

1 - سورة الإسراء : الآية 70.

-(266)-

أحوال المجتمع وآلت حاله إلى انحلال وزوال.

ومن ثم يمكن القول ان القانون بوجه عام في أية أمة من الأمم ليس إلاّ صورة صحيحة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية ، والهدف منه إقامة العدل وحفظ حقوق الفرد والجماعة بقواعد قانونية ملزمة ، وهذه القواعد تكون وقتية ومحلية إذا كانت قد سنّت لتعمل في مجال له أوضاعه الخاصة ذات الطابع العرفي الإقليمي.

ولكنها تكون صالحة للخلود والتعامل بها على نطاق دولي إذا كانت تعبر عن مفاهيم وحقائق ثابتة مسلم بها على نطاق إنساني عام ، أو اشتملت على قواعد وطائف كبرى هي: العلاج ، الوقاية ، والتوجيه .

وحتى يتمكن القانون من ان يؤدي وظيفته يجب ان يكون ملزماً .

والقانون أما أوامر أو نواهي ، ولكي تتوفر للقانون الطاعة والالتزام في العمل يحتاج إلى نوع أضفي من الأحكام التشريعية يسمى بالمؤيدات وهذه اما زواجر مدنية وأما عقوبات تأديبية .

ومن ثم يمكن تقسيم أحكام التشريع إلى نوعين:

1 - أحكام محمية وهي القانون الأصلي.

والإسلام كدين قد كفل صلاح البشر أفرادا وجماعات بالتربية والتنظيم. وقد اعتنى الإسلام أول ما اعتنى بمخاطبة عقل الإنسان وضميره ووجدانه فأتاح

1 - الإسلام والحياة المعاصرة ، فرانكلين بالقاهرة ، مجموعة أبحاث.

-(267)-

للمضمير ان يعتبر المثل الأخلاقية حين يتعامل في نطاق الشريعة .

والشريعة الإسلامية اسم للنظم والأحكام التي شرعها الله أو شرع أصولها ، وكلف المسلمين إياها ليأخذوا أنفسهم بها في علاقتهم بالله وعلاقتهم بالناس.

والإسلام في معالجته الإصلاحية للإنسان قد استهدف ثلاثة أهداف أساسية كل منها نتيجة لما قبله وأساس لما بعده .

أولاً: تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات ، وذلك عن طريق العقيدة والإيمان بالله ، وتوجيه العقل نحو معنى الألوهية بالدليل والبرهان والتفكير العملي الحر.

ثانياً : تربية ضمير الفرد وإصلاح نفسيته ، وذلك عن طريق تعريفه بالمثل الأخلاقية وإشباع نفسه منها ، وتوجيهه نحو الخير والإحسان وكل ما هو واجب أو أصلح.

ثالث: تحقيق العدالة والأمن والحريات في مجتمع صالح.

والإسلام لم يغفل أبداً عن العالمية في المجتمع الذي خطط مشروع تكوينه .

فالحج فضلاً عن انه عبادة وطاعة يستلهم فيها المؤمن جلال الله وعظمته في مواطن الوحي ومنبع الرسالة ،

فهو أيضاً مؤتمر عالمي يلتقي فيه المسلمون على صعيد واحد من شتى أنحاء الأرض فيندارسون ويتشاورون فتمتزج المعارف وتتوالد التجارب وتتوطد العلاقات وتتدعم الاخوة في الله تحت راية الإسلام وفي كنف الأمان والاطمئنان.

ومما هو جدير بالذكر هنا ان الشريعة الإسلامية في مجال ضبط الأحوال الشخصية قد كفلت للإنسانية عدالة لم تتوفر لها من قبل.

ونستطيع هنا ان نقرر جازمين انه حتى في عصر النهضة والمدنية كانت

—(268)—

محاولات الإنسان في الدول المتحضرة غير الإسلامية لإنصاف نفسه بوضع التشريعات التي حسبها توفر له أقصى قدر من العدالة والمصلحة، كانت هذه المحاولات شيئاً حقيراً لا يمكن ان ينافس الشريعة الإسلامية في دقتها وقدرتها على تحقيق العدالة المطلقة.

ان الشريعة الإسلامية ليست إلا شريعة متطورة متجددة تنبذ الجمود ولا تقبله، وإنها شريعة تتسع لكل ما يمكن ان يعرض للإنسانية من أمور ومشاكل واحتياجات أو بعبارة دقيقة صريحة حاسمة (شريعة إنسانية عالمية عامة تصلح لكل زمان ولكل مكان).

والله ولي التوفيق